صناعة السعادة كيف باعت لنا الحكومات والشركات الكبرى الرفاهيّة

الكاتب: ويليام ديفينز.

النّاشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- عالم المعرفة.

ترجمة: مجدي عبد المجيد خاطر.

الصّفحات: 283 صفحة.

سنة النّشر: 2018م.

مراجعة: رشا حسين الحاج*

مقدّمة

«أصبح البؤس الإنسانيّ مشكلة مزمنة لا يمكن للنّخبة تنحيتها جانبًا بسهولة. لذلك؛ يتطلّع المديرون وصانعو القرار السّياسيّ إلى علم مادّيّ يدرس السّعادة في مكان العمل. فجلبوا وسطاء ومستشارين للحديث عن رفاهيّة الآخرين والتّصرّف بناء عليها، أشبه بمعسكرات للتّدريب على السّعادة».

هكذا حاول «ويليام ديفيز» (William Davies)، في كتابه «صناعة السّعادة؛ كيف باعتنا الحكومات والشّركات الكبرى الرّفاهيّة؟»، أن يلقي الضّوء على كيفيّة اكتساب علم السّعادة الأهمّيّة البارزة في أوائل القرن الحادي والعشرين، وهو

* ماستر تاريخ - الجامعة اللبنانيّة.

أمرٌ متعلّق بطبيعة الثّقافة الرّأسماليّة ما بعد الصّناعيّة وبالتّقانة. ورأى ديفيز أنّه، غالبًا، ما يدور علم النّفس حول الكيفيّة التي تتحاشى بها المجتمعات النّظر إلى المرآة؛ فتقنيّات علم النّفس الإيجابيّ تلعب دورًا جوهريًّا في مساعدة البشر على استعادة طاقاتهم ودوافعهم، من دون مواجهة القضايا الاقتصاديّة والسّياسيّة الخطيرة. وقد انتكبت النّظم الاقتصاديّة الغربيّة بأزمة حادّة منذ ستينيّات القرن الماضي، جعلتها تعوّل بدرجة أكبر على اندماج النّاس الانفعاليّ والسّيكولوجيّ على الرّغم من الصّعوبة المتزايدة في الحفاظ على هذا الاندماج. فالاكتئاب والأمراض السّيكوسوماتيّة التي يشعر بها الأفراد إنّما تستفحل صعوبتها بالنّسبة إلى صنّاع السّياسة والمسؤولين حين تُفسَّر على أساس اقتصاديّ. مشيرًا إلى وجود اهتمام لتحويل انتباه النّاس بعيدًا عن المشكلات الاقتصاديّة والسّياسيّة الأوسع. وعليه؛ ينبّه بأنّ الوقت قد حان لإلقاء نظرة مشكّكة على تاريخ قياس السّعادة نفسه.

الفصل الأوّل: قياس الإحساس

أشار المؤلّف إلى آراء «جيرمي بنتام» (Jeremy Bentham). وهو مفكّر لديه نفور إنجليزيّ كلاسيكيّ من المذهب العقليّ. تبنّى مذهب المنفعة؛ أي النّظريّة التي تقول إنّ العمل الصّالح هو أيّما فعل يتمخّض عنه منتهى سعادة العشيرة كلّها. وبرأيه، إنّ مجرد الإيمان بأنّ السّعادة غاية الأخلاق والسّياسة ليس مهمًّا، ما لم يمكن تصميم مجموعة من الأدوات والتّقنيّات والمناهج لتحويل هذا المعتقد إلى مبدأ مؤسّس للحكم. وقد اقترح على وزارة الدّاخليّة البريطانيّة الرّبط بين أقسام الحكومة المختلفة لتحسين التّواصل في ما بينها، باستخدام مجموعة من «أنابيب الحوار». وبدأ يعرّف بـ «صناعة السّياسات المستندة إلى أدلّة»، مشيرًا إلى أنّ التّدخّلات الحكوميّة يمكن تخليصها من المبادئ الأيديولوجيّة الأخلاقيّة، بحيث لا تسترشد إلّا بالحقائق والأرقام. مضيفًا أنّه كلّما زاد تجريد القضيّة زاد احتمال عدّها محض سفسطة. وأمام سؤال: «إذا لم تعد السّياسة تشغل نفسها بقضايا مجرّدة مثل العدل أو الحقّ الإلهيّ، فبأيّ شيء ستنشغل بدلًا منها؟»، كانت إجابة «بنتام»: الانشغال بالسّعادة. ولكن، بأيّ منطق يصبح مصطلح «السّعادة» أقلّ خياليّة من «الفضيلة» مثلًا؟! يعقّب «بنتام» بقوله على الرّغم من أنّ السّعادة

في حدّ ذاتها ليست ظاهرة موضوعيّة مادّيّة، إلّا أنّها تصيبنا بوصفها نتيجة لمصادر مختلفة من اللّذّة ذات الأساس الفيسيولوجيّ؛ وأنّ الطّبيعة قد وضعتنا تحت سيطرة الألم واللّذّة. مؤكّدًا على قدرة علم السّعادة على إمداد الحكومات بأسس لتصميم سياسات وقوانين تحسّن مستوى رفاهيّة البشر بالمعنى الواقعيّ، وعلى توجيه السّلوك نحو الغايات المثلى في المجتمع. فيما عدّ عمل الحكومة تعزيزًا لسعادة المجتمع باعتمادها مبدأي الثّواب والعقاب.

صار عقل الفرد هو بارومتر الحقيقة الوحيد المخوّل بالسّلطة، مع رفع شعار عصر التّنوير «الجرأة على المعرفة». فتميّز القرن الثّامن عشر في خلق أدوات للقياس، وأصبحت مسألة استخدام الجميع مقاييس المقارنة نفسها على قدر كبير من الأهمّيّة. وفي ما يخصّ قياس شدّة اللّذّة أو عدمها، وكيفيّة تجلّي المنفعة بحيث يمكن استيعابها بالقياس، يقول «بنتام» إنّ الجسم يطرح أعراضًا ما قابلة للقياس وفاق ما يستوعبه العقل. فمعدّل نبضات القلب قد يوفّر مؤشّرًا على السّرور يمكن الاستفادة منه في حلّ مشكلة القياس. وبنشره فكرةً مفادها أنّه ربّما كانت للنّقود علاقة ما مميّزة بما يعتمل في داخلنا، هيّأ «بنتام» الأجواء للتّشابك بين البحث السّيكولوجيّ والرّأسماليّة الذي سيشكّل الممارسات التّجاريّة في القرن العشرين. وأينما ابتغى الخبراء رصد عاداتنا في التّسوّق ومستويات إجهادنا النّفسيّ، فهم يسهمون في المشروع الذي وضع «بنتام» أسسه. وسواء أأمكن تصنيف الجسم أو النّقود مؤشّرين على السّعادة أم لا، فإنّ هذه القضيّة قد تمثّل أهمّيّة قصوى في شرح الكيفيّة التي شُيّد بها مذهب المنفعة من حولنا.

وبيّن المؤلف آراء «جوستاف فخنر» (Gustav Fechner)، وهو لاهوتيّ فيزيائيّ ألمانيّ، تبنّى ثنائيّة عالم الفكر وعالم المادّيّات، مشيرًا إلى انسجام رياضيّ ما بين العالمين، في زمن كان العالم فيه إمّا يختزل بأكمله بتصنيفه مجرّد نتيجة للعقل المفكّر (المثاليّة)، وإمّا يختزل التّفكير إلى مجرّد توارد مادّيّ يخضع لقوى الطّبيعة (الإمبريقيّة)، كما افترض «بنتام». وقد عزم على اكتشاف كيفيّة عمل تلك العلاقة الرياضيّة التي افترضها بإجراء سلسلة من التّجارب التي رفع فيها أجسامًا ذات فروق دقيقة في الوزن؛ ليختبر كيفيّة ارتباط التّغييرات في الوزن المادّيّ بالتّغييرات في الإحساس الذّاتيّ. وكانت وحدة القياس التي قدّمها لتحديد الفرق اللّازم بين الأجسام المتشابهة في الوزن، ما أشير إليه بـ«أقلّ فرق ملحوظ».

واللّافت أن فخنر المثاليّ الرومانسيّ هو من أنزل حقًّا الماورائيّات إلى الأرض، بسبر أغوار الجسم وقياس الأحاسيس وإجراء التّجارب.

الفصل الثّاني: ثمن اللذّة

أشار «ديفيز» إلى حالة «شدّ العنق المفاجئ» المقترنة عادة بحوادث السّيّارات، والتي خضعت لدراسة الباحثين عسى التّوصّل إلى تفسير فيسيولوجيّ لها، ولكنّهم لم ينجحوا. ففي بريطانيا، مثلًا، أصبحت تعويضات شدّ العنق المفاجئ تساوي عشرين في المائة من تكلفة قسط التّأمين على السّيّارة؛ وهي متلازمة جاذبة للمحتالين. لذلك؛ بمجرّد الكشف عن حقيقة الألم سيزول التّلاعب، لكن حتّى نصل إلى هذا الكشف، ستضطرّ بيانات الحقيقة Truth Statements وما شابهها لتأدية دورها. وفكرة التّكافؤ بين الأحاسيس التي يولّدها النّظام العصبيّ من جهة، والمال من جهة أخرى، تقبع في أعماق متلازمة شدّ العنق المفاجئ، فينصّ هذا المبدأ على أنّ قدرًا معيّنًا من الشّعور الذّاتيّ يمكن موازنته بمبلغ مناسب من النّقود. كما أصبحت النّقودُ اللّغةَ الأخلاقيّة المشتركة التي يمكن بواسطتها حلّ النّزاعات.

كما ألقى المؤلّف الضّوء على آراء «ويليام جيفونز» (Wiliam Jevons)، والتي كان مفادها أنّ كلّ شيء خاضع لمسألة توازن من ناحية الكمّ. ووفاق ما اقترحه «بنتام»، إنّ عقولنا تعمل مثل آلات حاسبة رياضيّة، تقايض الميزات بالعيوب من دون توقّف. لكنّ جيفونز حوّل مذهب المنفعة إلى نظريّة تختصّ بالخيار المنطقيّ للمستهلك؛ فتتناغم آليّات العقل، حيث تستقرّ القيمة، وآليّات السّوق التي تولّد الأسعار. وكانت السّوق عبارة عن بيان سيكولوجيّ واسع، يكتشف رغبات المجتمع ويمثّلها. ولقد عرض جيفونز الرّأسماليّة بوصفها مجرّد لعبة هواجس ومخاوف، وقدّمها بشكل رياضيّ، في حين درسها الاقتصاديّون الكلاسيكيّون من ناحية الجهد والمردود المادّيّ النّاتج. فيمكن الآن النّظر إلى الرّأسماليّة بعدّها ساحة للخبرات السّيكولوجيّة التي تضطلع فيها الأمور المادّيّة بمجرّد دور الدّاعم لإنتاج الأحاسيس التي يمكن الحصول عليها بالنّقود، وإلى السّلعة بأنّها أيّ شيء يقدّم اللّذّة أو يدرأ الألم.

وبيّن «ديفيز» أنّ نظريّةً في الأفضليّات بدأت تحلّ محلّ نظريّة «جيفونز» بعد وفاته. إذ قدّر الاقتصاديّون أنّ التّفضيلات هي التي تحدّد الطّريقة التي ينفق وفاقها المرء، لا أحاسيسه الذّاتية الحقيقيّة. على سبيل المثال، لم يجدوا حاجة إلى

معرفة القدر الذي يمنحه طعام ما من لذّة للفرد؛ بل إذا ما كان الفرد يفضّل هذا الطّعام أو طعام آخر. كما أشار «ديفيز» إلى أنّ الاقتصاديّين تمكّنوا من إرساء صلة دقيقة بين اللّذّة النّفسية والنّقود، ودراسة العلاقة بين الرّفاهيّة والسّلع غير السّوقيّة المختلفة كي يستطيعوا تسعير أيّ شيء. وقد أتاحت هذه التّقنيّة لصنّاع القرار وضع سعر للثّقافة العامّة، فمثلًا: من خلال كشف مقدار السّعادة الذي تصنعه أماكن مثل المكتبات والمعارض الفنّيّة، استطاعت الحكومة البريطانيّة أن تكشف عن الإيراد المطلوب لإنتاج القدر المكافئ من الفائدة السّيكولوجيّة. ويعتقد علماء الأعصاب أنّهم حدّدوا المنطقة الدّقيقة في الدّماغ المسؤولة عن اتّخاذ قرارات شراء منتج بعينه. كما زعمت إحدى الدّراسات أنّها حدّدت الدّوائر العصبيّة التي تتعامل مع اللّذّة والسّعر على التّوالي، والمقاييس التي يعتمد عليها قرار كلّ مستهلك. ومع اكتشاف الدّوبامين الذي يُفرز في أدمغتنا ليكون «المكافأة» عن القرار الصّائب، أصبح مفهوم «القيمة مقابل النّقود»، بالنّسبة إلى الاقتصاديّين، ناظرًا إلى المادّة الكيميائيّة -التي تختلف كمًّا داخل أدمغتنا- كقيمة مقابل الدّولارات في الصّفقات.

الفصل الثّالث: في مزاج الشّراء

رأى ديفيز أنّ التّقنيّات التي تعدّ للكشف عن أسرار حالاتنا الانفعاليّة، مثال تلك المصحوبة ببرامج مسح ضوئيّ للوجوه، لا تستعمل لأغراض علميّة خالصة؛ بل لخدمة أبحاث السّوق والإعلان الموجّه في أكثر الأحيان. فلقد ازداد تركيز باحثي السّوق على عيوننا ووجوهنا، بحثًا عن إشارات تشي بما قد نشتريه. كما تُستهدف رغباتنا اللّاواعية ضمن مساعي المعلنين لحملنا على شراء منتجاتهم. وقد أسفر التّقدّم التّقنيّ عن طفرة علميّة داخل منظومة أبحاث السّوق. وثمّة عدد كبير من مختصّي علم نفس المستهلك يشدّدون على أنّنا نحقّق بعضًا من الإشباع العاطفيّ من خلال إنفاق النّقود، في مقابل أقلّيّة تلفت انتباهنا إلى حقيقة أنّ النّقود والممتلكات المادّيّة لا تؤدي إلى زيادة رفاهيّتنا العقليّة. وتساءل المؤلف عمّا إذا كان المستهلكون أصحاب سيادة، وإذا ما كانت انفعالاتهم مبنيّة على إراداتهم الحرّة، أم أنّهم مجرّد أوعية سلبيّة تصارع وجدانها الصّور والأصوات والرّوائح التي تُعرض أمامها. وركّز على أهمّيّة فحص تاريخ علم النّفس والنّزعة الاستهلاكيّة

بصفتهما مشروعين متشابكين، وعدّ التّقانة جزءًا من هذا التّشابك. فقد أتاحت قوّة الأجهزة التّقنيّة المغرية الإعلانَ عن انتفاء الحاجة إلى الفلسفة وفلسفة الأخلاق. ووقفت شركات، تسعى وراء مصلحة خاصّة لا عامّة، وراء سياسة عبث المعرفة العلميّة بمشاعر الآخرين، وتركها محلّ فوضى وغموض.

ثمّ أشار المؤلّف إلى آراء «فيلهلم فونت» (Wlihelm Wundt)، الذي يُنظر الآن إلى المنطقة المقفلة في مكتبه، في ألمانيا، على أنّها أوّل مختبر سيكولوجيّ في العالم. ولقد كان إنجاز فونت يتمثّل في فصل السّيكولوجيا بتصنيفها فرعًا معرفيًّا مستقلًّا بذاته، وبتقديره أنّ النّفس تتأرجح داخل مجالها الخالص بين عالم البيولوجيا الطّبيعيّة وعالم الأفكار الفلسفيّة. فبرأيه، إنّ العقل غير قابل للانحصار في الجسد، لكنّه لا ينفصل عنه بالكلّيّة أيضًا؛ لذلك رفض تطهير السّيكولوجيا من اللّغة الفلسفيّة. ومع التّحوّلات الكبرى في تاريخ أميركا؛ مِن تحوُّلِ الاقتصاد الزّراعيّ إلى الاقتصاد الصّناعيّ المتمدّن، وتنامي حجم الأسواق المحلّيّة بفضل اتّساع شبكة سكك الحديد في أنحاء الولايات المتّحدة، وتأسيس عدد من الجامعات الجديدة التي أرست علاقات وثيقة بعالم الأعمال، وفّرت الجامعات الألمانيّة مصدرًا مهمًّا لتدريب علميّ لجيلٍ جديدٍ من الباحثين الأمريكيّين. فقد سافر خمسون ألف أميركيّ إلى ألمانيا والنّمسا للحصول على درجات جامعيّة والتّدرّب على البحث العلميّ، ثمّ عادوا بما تعلّموه إلى الولايات المتحدة. وفي الحقيقة، تشي مختبرات علم النّفس الأولى في هارفارد، كورنيل، شيكاغو، كلارك، بيركلي وستانفورد، بتأثير فونت الواضح، بعدما استدرج الأميركيّون عددًا من طلّابه للسّفر عبر الأطلسيّ.

ويشير المؤلّف إلى غياب الإرث الفلسفيّ لعلم النّفس الأميركيّ؛ بل ويُعدُّ معاديًا للفلسفة، ولم يكن ثمّة ما يبرّر وجوده بالأساس ما لم يقدّم حلولًا للمشكلات التي تتعرّض لها الصّناعة والمجتمع الأمريكيّان. كما ألقى الضّوء على إمكان انحراف النّشاط الفرديّ باتّجاه غايات تختارها قوى نخبويّة، لكن من دون قسر واضح أو تشاور ديمقراطيّ؛ فتأسّف على التّواطؤ العلميّ مع السّلطة. ثمّ بيّن كيف أصبحت السّيكولوجيا بين يديّ «جون واطسون» (John Watson)، رئيس اتّحاد علماء النّفس الأمريكيّين، أداةً لتلاعب المختصّين، خاصّة في ظلّ التّقاليد العلميّة الأكثر تأثيرًا في القرن العشرين، ألا وهي السّلوكيّة. ولا تسعى التّجارب السّلوكيّة إلى التّلاعب فقط؛ بل يتخلّلها بعض من الخداع أيضًا. فحتّى حين يستخدم

المفحوصون الموافقة المطَّلعة، لا بدّ من أن يبقوا جاهلين -إلى حدّ ما- بماهيّة ما يجري اختباره بالضّبط، وإلّا فسيبرز الخوف من احتمال تعديل سلوكهم بالتّبعيّة. لذلك، تكون الغايةُ خفض فهمهم الواعي لطبيعة ما يجري. فالسّلوكيّ لا يرغب في سماع ما يشعر به النّاس؛ بل في اكتشاف طرق لإنتاج المشاعر والحاجات والمتطلّبات لتصبح كيانات موضوعيّة يمكن رؤيتها. لذلك؛ يسعى إلى إنتاج قاعدة علميّة للممارسات التّجاريّة، مثل الإعلان. وقد أكّد واطسون للمعلنين أنّ أهمّ ما يجب تذكّره أنّهم لا يبيعون منتجًا على الإطلاق؛ بل يسعون إلى إنتاج استجابة سيكولوجيّة، والمنتج ليس إلّا وسيلة للقيام بذلك إلى جانب الحملة الإعلانيّة. كما حذّر من السّعي وراء رغبات المستهلك الموجودة بالفعل وانفعالاته، إذ ينبغي تفجير رغبات وانفعالات جديدة. واكتشف طرقًا لتسويق مسحوق غسيل مخصّص لثياب الأطفال تعتمد على الانفعالات التي تمرّ بها الأمّهات؛ مثل القلق والخوف والرّغبة في النّقاء. وأكّد أنّ مباركات المشاهير هي طريقة فعّالة لتحقيق ارتباط المستهلك بالعلامات التّجاريّة.

الفصل الرّابع: التّوظيف السّيكوسوماتيّ

تساءل «ديفيز» عن مآل الأمور فيما لو كان أكبر تهديد للرّأسمالية، داخل الغرب اللّيبراليّ على الأقلّ، هو ببساطة نقص الهمّة. فقد سيطرت المخاوف بشأن الولاء الوظيفيّ على خيال المديرين وصنّاع القرار خلال السّنوات الأخيرة؛ إذ من دون مستوى معيّن من التزام الموظّفين، يصطدم العمل بمشاكل تتجلّى في الأرباح، وبقضم النّاتج الاقتصاديّ، وتتأثّر الإيرادات الضّريبيّة سلبًا. وغياب الولاء للعمل يكشف عن نفسه من خلال التّغيّب، المرض، أو الحضور إلى العمل في حال المرض لمجرّد إثبات الحضور. وقد كشفت إحدى الدّراسات أنّ غياب أكثر من ربع قوّة العمل يكون بسبب الإنهاك لا المرض. كما تبيّن أنّ إنتاجيّة العمّال تزداد حين يشعرون بالسّعادة، بنسبة تُقدّر تقريبًا باثني عشر في المائة من العائد الكلّيّ، وأنّهم يبذلون جهدًا أكبر حينما يلاقون الاحترام والإنصات والرّغبة في مشاركتهم في أماكن العمل، ويقلّ احتمال لجوئهم إلى الإجازات المرضيّة. فلقد أصبح البؤس الإنسانيّ مشكلة مزمنة، لا يمكن للنّخبة تنحيتها جانبًا بسهولة. لذلك؛ يتطلّع المديرون وصانعو القرار السّياسيّ إلى علم مادّيّ يدرّس السّعادة في مكان العمل.

فجلبوا وسطاء ومستشارين للحديث عن رفاهيّة الآخرين والتّصرّف بناء عليها، هي أشبه بمعسكرات للتّدريب على السّعادة.

كما أنّ قانون الإنتروبي The law of Entropy الذي يشير إلى أنّ كمّيّة الطّاقة لا تبقى كما هي في النّهاية، بسبب تغيّرها من حالة إلى أخرى، قد أثار موجة من القلق بشأن مستقبل الرّأسماليّة الصّناعيّة. فمع تناقص موارد الرّأسماليّة من البشر، أصبحت الحيويّة التي ترتكز عليها الحضارة الغربيّة تعاني انحدارًا لا يتوقّف. ولقد نشأ علم هندسة العوامل البشريّة Erogonomics لدراسة وتصوير الأجسام في أثناء الحركة، ولفهم كيفيّة حلول الإنتروبي في الجسم البشريّ داخل مكان العمل. ولقد افترضت نظريّة السّيكوسوماتيّة أنّ المشاكل النّفسيّة في مكان العمل لا تظهر فقط من خلال انخفاض الإنتاجيّة والاضطراب الصّناعيّ؛ بل من خلال ارتفاع ضغط الدّم أيضًا؛ في مسعى لإثبات العلاقة بين ما هو عقليّ واقتصاديّ وجسمانيّ. ولكي تُنقذ استبصاراتُ السّيكولوجيا الرّأسماليّة، أصبح التّركيز، داخل مكان العمل، على جميع اهتمامات الفرد ورفاهيّته العقليّة. كما أنّ استيعاب خصائص المجموعات السّيكولوجيّة الفريدة كان مهمًّا، لأنّ مقدار السّعادة التي يمكن لهويّة جماعة متآزرة وخصبة أن تحقّقه للموظّف أكبر بكثير ممّا تحقّقه زيادة الرّاتب.

الفصل الخامس: أزمة السّلطة

ألقى «ديفيز» الضّوء على العلاقة الوثيقة بين الاضطراب والمنافسة وثقافة التّنافس؛ فأينما نقيس جدارتنا الذّاتيّة بالنّسبة إلى الآخرين، فإنّنا نخاطر بفقدان إحساسنا بقيمة الذّات تمامًا. ولذلك؛ ينشأ الاضطراب الاكتئابيّ التّنافسيّ المرتبط بالنّيوليبراليّة. فمن غير المستغرب أن يتخلّل المجتمع الأمريكيّ اضطرابات اكتئابيّة، بما أنّه يمنح العقليّة الفرديّة التّنافسيّة ميزات خاصّة. ففي مجتمع يجعل النّموّ الشّخصيّ العامّ فضيلته القصوى، تصبح الإصابة باضطراب الانهيار الشّخصيّ العامّ أمرًا لا مفرّ منه. وكان ينظر إلى الاكتئاب على أنّه اضطراب نفسيّ يمكن معالجته بالصّدمات الكهربائيّة في حال بلغ حدًّا يستدعي ذلك، ولم يكن يتلقّى سوى اهتمام محدود نسبيًّا من مهنة الطّبّ النّفسيّ. لكن، نتيجة خطورة انكماش النّفس على الحياة الاقتصاديّة، انكبّت الدّراسات للعثور على حلول للتّخلّص من الاكتئاب الذي يهاجم الأصول الحيويّة لاقتصاد يولي أهمّيّة للمهارات الدّماغيّة. وبيّن

المؤلّف أنّ إحدى طرق استيعاب النّيوليبرالية هي دراسة كيفيّة تطوّر الأمور؛ بدءًا من توسعة تقنيّات إدارة القطاع الخاصّ لتشمل كلّ مناحي الحياة، وهيمنة القطاع الماليّ المتزايدة على بقيّة الاقتصاد والمجتمع، وصولًا إلى رفع مستوى البطالة. فإنّ تحليل هذه الاتّجاهات، واستيعاب سبب وقوعها وكيفيّته أمرٌ بالغ الأهمية. وأشار إلى وجود فلسفة سياسيّة مدفونة داخل صناديق العدّة التّكنوقراطية الخاصّة بالمنظّمين والمقيمين النّيوليبراليّين. تُحمّل هذه الفلسفة النّاس مسؤوليّة فشلهم، من دون أن تحمل لهم سوى أمل ضعيف في انتصارات مستقبليّة يتشبّثون به.

وأضاف المؤلّف أنّ الباحثين الذين أصبحوا يُعرفون بمدرسة شيكاغو التفّوا حول قيادة عالِميّ الاقتصاد «يعقوب فيز» (Jacob Vıner) و«فرانك نايت» (Frank Knıght)، وتميّزوا بإيمانهم الجوهريّ بأنّ الاقتصاد علمٌ موضوعيّ يختصّ بالسّلوك الإنسانيّ الذي يمكن فصله تمامًا عن جميع الحسابات الأخلاقيّة أو السّياسيّة. ففيما فسّر جيفونز حركة أسعار السّوق بناء على عقلانيّة المستهلكين السّيكولوجيّة الذين يطمحون باستمرار إلى تحقيق أعلى قيمة بأقلّ تكلفة، تميّزت مدرسة شيكاغو بنشرها نموذجَ علم نفسٍ يتجاوز حدود استهلاك السّوق، وينطبق على جميع أشكال السّلوك البشريّ. وكانت هذه المدرسة تفترض أن تظلّ الأسواق مفتوحة وتنافسيّة، بحيث تدار وفاقًا لمبادئ محدّدة تكفل العدل والإنصاف، وإلّا ابتلعتها الاحتكارات؛ أي إنّها تقتضي وجود سلطات قادرة على التّدخّل متى ما كفّ المتنافسون عن اللّعب بنزاهة، إلى أن نوقشت ورقة بحثيّة مشكّكة بهذا المنطق باسم «مشكلة التّكلفة الاجتماعيّة» The Problem of Social Cost من إعداد «رونالد كوس» (Ronald coase)، الاقتصاديّ البريطانيّ الذي صرّح بعدم وجود حدود للمدى والقوّة التي يمكن لمؤسّسة رأسماليّة الوصول إليهما، ما دامت تعمل داخل إطار تنافسيّ.

الفصل السّادس: أمثلة اجتماعيّة

تطرّق «ديفيز» إلى نظام تسعير «الوفاء بالعطاء» Pay it Forward الذي اتّبعه عدد من الشّركات الصّغيرة في كاليفورنيا، وبيّن أنّ النّاس عمومًا، في إطاره، يميلون إلى دفع سعر أكبر مقابل سلعة، مقارنة بما يدفعونه في إطار نظام تسعير تقليديّ؛ لأنّهم لا يحبّون أن يظهروا في المجتمع بصورة البخلاء. وفي حال رغبة فرد ما

في السّيطرة على الآخرين، تصبح استمالة حسّهم الأخلاقيّ وهويّتهم الاجتماعيّة أكثر فاعليّة من استمالة مصلحتهم الشّخصيّة. وهكذا، يحوّل العلم السّلوكيّ مفاهيم مثل الإنصاف والمنحة إلى أدوات للسّيطرة الاجتماعيّة؛ بتأطير هذه المفاهيم في مصطلحات سيكولوجيّة وعصبيّة خالصة. ولذلك؛ يكشف النّظر في أنشطة مثل «الوفاء بالعطاء» وأعمال السّخاء الإداري العشوائيّة، عن وجود عنصر خبيث يمارس دوره بتخفٍّ متعمّد.

وألقى المؤلّف الضّوء على ملاحظات «جاكوب مرينو» (Jacob Moreno) الذي قال إنّ البشرَ أسيادٌ داخل نطاق عوالمهم الاجتماعيّة الخاصّة؛ يتحكّمون في أنفسهم وعلاقاتهم. فقد رأى أنّ مشكلة التّحليل النّفسيّ هي دراسته الأفراد بمعزل عن المجتمع، من دون القيود التي تفرضها العلاقات القائمة. وكان الخطر يتمثّل في إمكانيّة أن تتحوّل فردانيّة الفرويديّة المفرطة مباشرة إلى ما يساويها من جماعيّة الماركسيّة المتطرّفة، أو صيغة السّوسيولوجيا الإحصائيّة التي كان «إميل دوركايم» (Emile Durkheim) أوّل من نادى بها. وقد طبّق مورينو القياس الاجتماعيّ في إحدى مدارس نيويورك، وبلور خرائط سوسيومتريّة بصريّة للنّتائج، للمرّة الأولى، ليصبح العالم الاجتماعيّ مرئيًّا بطريقة جديدة كلّيًّا. ولاحقًا، طُوّرت خوارزميّات يمكنها اكتشاف الأنماط داخل البيانات الاجتماعيّة. ولكي ينجح قياس مورينو الاجتماعيّ، لا بدّ من استبعاد الفروق الدّقيقة. لكن، يؤكّد المؤلّف أنّ طرائق التّحليل الاجتماعيّ ليست بريئة سياسيًّا كما تبدو، على الإطلاق. لذلك؛ يجب إمعان النّظر في الفلسفة التي ألهمت مؤسّس هذا التّحليل. فحين تدرس الحياة الاجتماعيّة من باب السّيكولوجيا الرّياضيّة، تظهر بعض الآثار المقلقة المتعلّقة بالكيفيّة التي يبدأ بها انتساب البشر بعضهم إلى بعض. ومع عدّ البشر أسيادًا داخل مجتمعاتهم، كما يرى مورينو، يتوفّر نموذج آخر للطّريقة التي تصنع بها اللّذة وتقاس.

الفصل السّابع: الحياة داخل المختبر

أشار «ديفيز» إلى التّحدّيات التي تواجه مشروع القياس السّيكولوجيّ للجماهير. إذ ثمّة بعد سياسيّ لأيّ علم اجتماعيّ، فيضطرّ الباحث إمّا للتّفاوض مع المستهدفين ببحثه ليقبلوا معه، وإمّا لاستعمال درجة من الحصانة لإخضاع النّاس للدّراسة والقياس، وإمّا للّجوء إلى العمل النّمطيّ في الخفاء. وقد يتأفّف النّاس

من مشاركة تفاصيل حياتهم مع باحثين يحملون حواسيب لوحيّة، كأنّهم يقتحمون خصوصيّاتهم؛ ولكن حين يطرح الفيسبوك سؤالًا غير بريء على مليار مستخدم، يريقون آراءهم ورغباتهم داخل بنك بيانات الشّركة العملاقة، من دون أدنى تفكير.

وفي إحدى الجامعات، شيّدت مجموعة من السّيكولوجيّين خوارزميّة استهدفت حصر قدر السّعادة المعبّر عنها في تغريدة قصيرة. فأسّست قاعدة بيانات ضمّت خمسة آلاف كلمة مستقاة من نصوص رقميّة، وأعطت كلّ كلمة قيمة سعادة Happiness value على مقياس من واحد إلى تسعة، لكي تُحتسب قيمة التّغريدة على أساس تعبيرها عن السّعادة. كما أنّ تطبيقات الهواتف الذّكيّة، مثل Track Your Happiness المطوّرة في هارفارد أو Mappiness المطوّرة في معهد لندن للعلوم الاجتماعيّة، والتي تحثّ النّاس كلّ بضع ساعات على التّعبير عن تفاصيل حالاتهم المزاجيّة ونشاطهم الجاري، أتاحت لعلماء الاقتصاد واختصاصيّي الرّفاهيّة حشد معلومات جمّة.

وبيّن «ديفيز» أنّ التّقانات تواصل نموّها، وتخترق حيواتنا الشّخصيّة والاجتماعيّة، بعد أن كان قياس المشاعر، في مرحلة «بنتام»، أملٌ يُرجى أن يتحقّق بالمال أو بقياس معدّل النّبض، وتطوّر في مرحلة لاحقة إلى محاولة التّوحيد بين هذين المؤشّرين. وتساءل عن خطورة التّمادي إلى هذا الحدّ، لتأكيد أنّ شظايا السّعادة المختلفة مترابطة، إلى درجة تدفعنا إلى تأليف علاقة بين أرصدتنا في البنوك وأجسادنا، وتعبيرات وجوهنا وعاداتنا في التّسويق. وخلص إلى أنّنا، في كنف التّفاؤل العلميّ، محكومون بفلسفة غير معقولة، تعجز عن معرفة إذا ما كانت السّعادة شيئًا ماديًّا أو ميتافيزيقيًّا بشكل يقينيّ.

الفصل الثّامن: حيوانات إشكاليّة

تشدّد تقاليد علم النّفس المجتمعيّ الذي نشأ في الولايات المتّحدة على أنّه لا يمكن فهم الأفراد إلّا في سياقاتهم الاجتماعيّة. ويحاول علم الأوبئة الاجتماعيّ، في المملكة المتّحدة، استيعاب كيفيّة تفاوُت الاضطرابات العقليّة عبر طبقات اجتماعيّة ومجتمعات مختلفة، وارتباط هذا التّفاوت بالظّروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة. ولكن، خلال تاريخ التّحليل العلميّ الطّويل للعلاقة بين المشاعر الذّاتيّة والظّروف الخارجيّة، ثمّة ميل دائمًا إلى رؤية يُسرٍ وسهولة أكبر في تغيير

المشاعر الذّاتيّة من تغيير الظّروف الخارجيّة، ولم يوجّه التّركيز على إيجاد حلول اجتماعيّة وسياسيّة للمشاكل التي تسبّب البؤس.

وأشار «ديفيز» إلى أنّ التّحليلات العلميّة تتغافل عن الآثار السّيكولوجيّة النّاجمة عن قضاء وقت في الطّبيعة، فلا يُروَّج لذلك، على الرّغم من قدرته على التّخفيف من حدّة الاكتئاب. في حين يُشجَّعُ كلّ من يرغب بمعرفة المزيد عن الفلاحة أو من يطمح أن يكون عضوًا في المزرعة بوصفها مؤسّسة تُنتَجُ فيها الخضراوات لبيعها .

من جهته، عدّ «لودفيغ فيتغينشتاين» (Ludwig Wittgenstein) المسألة المتعلّقة بفهم الآخرين وشعورهم مسألةً اجتماعيّة. فإنّ استيعاب الفرد ما يفعله يعني استيعاب ما يعنيه سلوكه بالنّسبة إليه، وإلى المحيطين به. وذلك يشير إلى جودة غير عاديّة للّغة السّيكولوجيّة، جديرة بالاهتمام. وكان يقول إنّ الخصائص السّيكولوجيّة هي خصائص حيوانيّة بصفة عامّة، لكن بسبب غطرسة السّيكولوجيا العلميّة وعلم الأعصاب، صار من المألوف أن نقول إنّ عقلك يريد منك أن تشتري هذا المنتج، على الرّغم من أنّ الإرادة تصرّفٌ لا يمكن فهمه إلّا على أساس تأويل بشريّ ضمن علاقات اجتماعيّة، وله نوايا وغرض.

وأكّد «ديفيز»، في الختام، على أهمّيّة تذكّر التّناقض الفلسفيّ المتأصّل بكلّ تلك المشاريع، والتّدبّر في أصولها التّاريخيّة والسّياسيّة. وما استهدفه بهذه الدّراسة هو إظهار تورّط الأمل والابتهاج مع بنى القياس والمراقبة والحكومة التّحتيّة. فمن غير المستغرب، كما يقول ديفيز، أن يتخلّل المجتمع الأمريكيّ اضطرابات اكتئابيّة، بما أنّه يمنح العقليّة الفرديّة التّنافسيّة ميزات خاصّة. وفي مجتمع يجعل النّموّ الشّخصيّ العامّ فضيلته القصوى، تصبح الإصابة باضطراب الانهيار الشّخصيّ العامّ أمرًا لا مفرّ منه.